هجاء الزوجة في العصر العباسي الأول

الدكتور كمال عبد الفتاح حسن
جامعة تكريت . كلية التربية / سامراء . قسم علوم القرآن

توطئة :

تشوب بعض المصاعب البحث في موضوعات شعرية تستحق الدراسة ، لأن الدارسين قديمًا وحديثًا بحثوا في كثير من الجزئيات والجوانب التي قد غفل عنها بعضهم ، أو أنهم مروا عليها بعجالة ، أو قل : إنهم لم يعطوها حقها من البحث والدراسة ، ولكن هناك بقية يستطيع الباحث من خلالها أن يبحث فيها ، ومن هذه الموضوعات (هجاء الزوجة) ، فقد لفت هذا الموضوع نظري من خلال بعض اللمحات التي أشار إليها بعض الباحثين ، وحتى القدماء من أصحاب الاختيارات ، ولاسيما (أبو تمام في حماسته) ، فقد أورد بابًا سماه (مذمة النساء) ، وأن كتب الاختيارات الأخرى والمعجمات الشعرية وكتب النوادر قد زخرت بأمثلة شعرية لها دلالة على هذا الموضوع ، والكتب التي تناولت فن الهجاء كثيرة ، ولكنها لم تفرد ما هو خاص بهجاء الزوجة ، وإنما كانت من ضمن أنواع الهجاء أو اتجاهاته، وتناولت الدكتورة واجدة الاطرقجي في كتابها (المرأة في أدب العصر العباسي) مبحثًا صغيرًا حول هجاء الزوجة ، ولكنها لم تلمّ بشتات الموضوع كله ، وإنما جاء المبحث مبتسرًا في ضمن كتابها والحديث عن المرأة ، فجاءت بالشواهد ولم تفصل القول فيها ، لذلك أردت في هذا البحث أن أتناول هذا الموضوع ، لعلي آتي بشيء يفيد القارئ ، فلموضوعة (هجاء الزوجة) عدة جوانب وأسئلة ، منها : لماذا يهجو الشاعر زوجه ؟ وهل تلك العيوب التي أسبغها حقيقية ؟ وهل كان صادقًا في طرحه ؟ أو أن هناك أمورًا قد اختلقت ، وحاول الشاعر أن يلصقها بزوجه ، لما عرف عنهم من مبالغة ؟ وما أسباب هذا الهجاء ؟

كل هذه الأسئلة سأقوم بالإجابة عنها قدر استطاعتي ، من الشواهد التي جمعتها من مصادر تراثنا الثر ، على الرغم من قلتها واقتصار الأمر على بعض الشعراء ، وإن كان تراثنا قد ضم في صفحاته أشعارًا لبعض الشعراء ، الذين تناولوا في أشعارهم أزواجهم ، ومنهم على سبيل المثال الحطيئة ، فقد عرف عنه أنه تناول أهله بلسانه ، بل حتى إنه هجا نفسه .

ولا بد من الإشارة إلى أن الشعراء الذين تناولتهم في هذا البحث لم يكونوا بالكثرة التي يمكن أن تكون ظاهرة في هذا العصر ، لقلة عددهم ومحدودية نتاجهم في هذا الاتجاه .

التمهيد :

زخر الأدب العربي بعدة فنون أدبية منذ نشأته ، وتنوعت تلك الفنون تبعًا لشخصية الشاعر والأحاسيس التي تصيبه والحوادث التي تلم به ، من حبٍّ وكرهٍ وخوف وغضب ورضا ... الخ ، مع أن الباحثين لم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى أولية الشعر العربي وبداياته ، لأن ما وصل إلينا من فنون شعرية كانت راقية في فنها ، ومكتملة الأجزاء ، لذلك كان حكم النقاد على أولية الشعر وبداياته ــ من دون الخوض فيما ذكر من أشعار للجن وللأقوام البائدة، وإن ما صح منه ــ على المتكامل والعالي الجودة الفنية ، ولم يتوغلوا في بدايات النشأة[١] ، والفنون الشعرية التي صدحت بها حناجر الشعراء ، وانسابت على ألسنتهم ، تتحدث عن موضوعات كثيرة ، من ضمنها الهجاء .

يعد غرض الهجاء من الموضوعات التي ارتبطت بحياة الناس ولامست مشاعرهم ، ويعدُّ أحد الفنون الشعرية المهمة التي كان لها حيز في مكتبة الأدب العربي ، وكان صورة أخرى للمجتمع بما يطرحه من صفات سلبية يراد أن تنبذ والتمسك بصفات الضد ، وقد قيل عن الهجاء : إنه أحد التعويذات التي استعملها الإنسان ، ومنه صبت اللعنات على أعدائه ، أو إنه يريد أن يوقف شرورهم اتجاهه[٢] .

والهجاء ضد المدح[٣] ، وهو عَدُّ المعايب وكشف المساوئ والرذائل للمهجو منه ، ويختلف باختلاف الموقف والهدف ، فمنه ما كان سياسيًّا أو اجتماعيًّا أو أخلاقيًّا ، وضمت صفحات الأدب بين دفتيها كثيرًا من الشواهد على هذا الفن ، فقد كان جلُّ الشعراء يتناولونه في أشعارهم ، وقلما نجد شاعرًا لم يتناول هذا الفن في شعره ، لذلك عدَّ النقاد الأوائل الهجاء أحد الأبواب المهمة التي يشتمل عليها الشعر العربي[٤] .

اختلف تعريف الهجاء ومفهومه عند القدامى[٥] ، فقال عنه خلف الأحمر : ((أشد الهجاء أعفّه وأصدقه ... وقال : ما عفَّ لفظه وصدق معناه))[٦] .

لم يعد هذا المفهوم قائمًا بحكم تطور الحياة وتشعب جوانبها ، وقد أضعف هذا الفن عند ظهور الإسلام ، لما جاء به الدين الحنيف من نزوع نحو الفضيلة ، وعدَّ الهجاء إثمًا ، إلاَّ أنه نشط وأخذ طابعًا جديدًا في عصر بني أمية ، وأصبح له ديوان جديد موروث ، هو ديوان النقائض ، وكان ((عبارة عن هجاء دائم مستمر ، وعبارة عن احتراف لفن الهجاء ، ولهذا لم يكن يراد بها الجد ، كما كان شأن الهجاء في الجاهلية ، ولكن يراد بها اللهو والإضحاك))[٧]، وسبب ذلك الخلاف السياسي والعصبية القبلية .

وفي العصر العباسي أخذ فن الهجاء جوانب أخرى في مسيرته ، فكانت هناك بعض الأمور التي تتحكم بالشاعر ، ليصب جامّ غضبه على أعدائه أفرادًا وجماعات ، وللشعوبية من أثر في تطوره[٨] .

أخذ الهجاء يتطور كغيره من الفنون الشعرية ، ويتأثر بروح العصر ، فكان للفكاهة والعبث والتندر أثر واضح فيه ، وفي اتجاهاته التي شملت الناس والزمن والجماد والحيوان والشعراء أنفسهم ، وأصبح هذا الفن وحدة مستقلة بذاتها من دون أن يشترك مع باقي الفنون الشعرية كما كان سابقًا ، وإنما كان الشاعر يقصده وقد يجهد نفسه في نظمه ، ولا يشرك معه أي فن أو غرض من الأغراض الشعرية ، وبات ميل الشاعر للمقطعات واضحًا ، فـ ((سلك أكثر شعراء العصر العباسي في هذا مسلك التقصير ... فغلَّبوا جانب المقطعات على الطوال))[٩] .

أسباب هجاء الزوجة

اختلفت موضوعات الهجاء وألفاظه ومعانيه باختلاف العصر ، فمنه ما تناول أفرادًا وجماعات ــ كما ذكرت آنفًا ــ ومنه ما يقصد به موضوعًا سياسيًّا أو اجتماعيًّا ، لذلك تعددت موضوعاته منذ النشأة وحتى العصور المتأخرة ، وكما ذكرت سابقًا أنه يتناول عدة موضوعات ، ولكن يزاد عليه موضوعة هجاء الزوجة ، وقد يختلف هجاء الزوجة وسببه من شاعر إلى آخر ، بحكم الحياة نفسها ، وما كان عليه من سلوك وما آل إليه من حال ، فمنهم من تناول زوجه بالهجاء ، لأنه كان من ضمن ديدنه كدعبل ، فهو لم يسلم أحد منه حتى أهله[١٠] ، ومنهم من تناول أهله بقصد التكسب والإضحاك كأبي دلامة ، وهناك من تناول زوجه لكرهه لها ، ومنهم من لم يطقها وغيرهم .

شعراء الهجاء

يعد دعبل من أشهر شعراء الهجاء في العصر العباسي ، وفي هجائه لزوجه نجد أن سهامه قد وجهت وبشدة نحوها ، ووصفها بأقبح صور ، ولصق بها صفات تنفر منها النفس ، وبالغ في تشبيهاته ، وأتى بكل أنواع الحيوانات المفترسة منها والقبيحة ، ليشبهها بها ، وكانت هذه الصورة غير المتجانسة دليلاً على عمق ما أراده دعبل من زوجه ، ومن تلك التشبيهات الغريبة التي حاول منها أن يصور زوجه بأنها ذات رأس ضخم كرأس بعير، وسيقان كأنها ساقا نعامة ، ولها رُكَب الأرنب ، كل هذا قد جمعه في بيت شعري واحد ، فما بالك بالأبيات الأخرى التي أكثر من هذه الصور المضحكة والمؤلمة في آن معًا ، وإن كانت مستهجنة لكنها تثير الضحك عند المتلقي ، وتوغر في ألم المهجو . ولعل إكثاره من الصور غير الواقعية أنه أراد أن يلصق كل صفة قبيحة بها ، من دون النظر إلى البعد الإنساني ، فضلاً عن سلبه

لعناصر الأنوثة منها ، ويخيل لي أنه في هذا الشعر يعبر عن أخلاق لا تسمو إلى أخلاق الرجال ، وإنما هي من أخلاق المتهتكين بالقيم والفاقدين للعفة والمروءة ، قال دعبل :

يا رُكبَتي خَزز وَساقَ نَعامَةٍ وَزَبيلَ كَنّاسٍ وَرَأسَ بَعيرِ
يا مَن أُشَبِهُها بِحُمّى نافِضٍ قَطّاعَةٍ لِلظَهرِ ذاتِ زَئيرِ
صُدغاكِ قَد شَمِطا وَنَحرُكِ يابِسٌ وَالصَدرُ مِنكِ كَجُؤجُؤُ الطَنبورِ
يا مَن مُعانِقُها يَبيتُ كَأَنَّهُ في مَحبِسٍ قَمِلٍ وَفي ساجورِ
قَبَّلتُها فَوَجَدتُ لَدغَةَ ريقِها فَوقَ اللِسانِ كَلَسعَةِ الزَنبورِ[11]

ويبدو أن دعبلاً الذي كان ديدنه الهجاء للخلفاء والوزراء والقضاة والناس عامة ، الأحياء منهم والأموات وحتى المدن ، لم يستطع أن يكف لسانه عن أهله وعشيرته[12] ، وذكر ابن المعتز خبرًا عن شخصية دعبل تبين ما كان عليه الرجل من سلوك وأخلاق جعلت الآخرين يتجنبونه[13] ، فمن كان هذا طبعه فلا عجب أن ينزل إلى مهاوي الرذيلة والإسفاف في هجاء زوجه ، التي كرمها الله ﷻ ، وأوصى بها النبي الكريم ﷺ خيرًا ، فقد بينت الشريعة السمحاء حكم من كان على خصام مع زوجه ، فقال عز من قائل : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ ﴾[14] ، وذكر صاحب الأغاني في رواية عنه أنه لم يسلم منه أهل بيته[15] .

والمتفحص لديوانه يرى أنه قد حوى كثيرًا من أشعار الهجاء لمن تزوج بأكثر من امرأة ، ومن هنا يمكن أن نعد هجاءه للمرأة عامة ، وللزوجة خاصة ينم عن عقدة يعاني منها دعبل ، أثرت في سلوكه ونظرته إلى المرأة ، وقصائده ومقطوعاته التي تناول بها هجاء امرأة من دون الإشارة إلى ماهية هذه المرأة ، فأشكُّ أنها كانت زوجه ، وهي المقصودة بها ، لأنها تتشابه من ناحية الصور والمعاني والألفاظ والهدف .

وصور هجائه تكاد تكون متشابهة ، ولاسيما تركيزه على الوجه ، لأنه أول ما يراه الإنسان ، قال دعبل :

أُلامُ عَلى بُغضي لِما بَينَ حَيَّةٍ وَضَبعٍ وَتِمساحٍ تَغَشّاكَ مِن بَحرِ
تُحاكي نَعيماً زالَ في قُبحِ وَجهِها وَصَفحَتُها لَمّا بَدَت سَطوَةُ الدَهرِ
هِيَ الضَرَبانُ في المَفاصِلِ خالِيًا وَشُعبَةُ بِرسامٍ ضَمَّتَ إِلى النَحرِ
إِذا أَسفَرَت كانَت لِعَينَيكَ سُخنَةً وَإِن بُرقِعَت فَالقَفرُ في غايَةِ القَفرِ
وَإِن حَدَّثَت كانَت جَميعَ مَصائِبِ مُوَفَّرَةٍ تَأتي بِقاصِمَةِ الظَهرِ

حَـــديثٌ كَقَلـــعِ الـــضِّرسِ أَو نَتـــفِ شـــارِبِ
وَغُـــنجٌ كَحَطـــمِ الأَنـــفِ عيـــلَ بِـــهِ صَـــبري
وَتَفتَـــرُّ عَـــن قُلـــحٍ عَـــدِمتُ حَـــديثَها
وَعَن جَبَلَي (طَـــيٍّ) وَعَـــن هَرَمَـــي (مِـــصرِ)[١٦]

نراه لم ينفك عن إيراد تشبيهات بحيوانات ينفر منها الإنسان ، فهـي حيـة وضـبع وتمساح ، لما لكل منها من شكل قبيح وطبيعة منفرة ، ونراه يهتم بوجهها فجعله كالمثل القائل : (أقبح من زوال النعمة)[١٧] ، ناهيك عن خلو الوجه من النظارة والحياة ، وينعم في وصفه بأشد الأوصاف إيلامًا ، لأنه وجه يجلب الفقر ولا تنظره العيون لقبحه ، أما حديثها وما به من ثقل على السامع ، فلما لهذا الحديث من سماجة وألم ، كأنه قلع ضرس أو نتف شارب، ويبالغ في وصف الحديث حين جعله بثقله كجبلي طيئ وأهرامات مصر .

وفي مقطوعة أخرى يذهب إلى المذهب نفسه في وصف الشكل والعبـوس والقـبح ، فقال :

اصْـــرِميني يَـــا خِلقَـــةَ المجـــدارِ وَصِـــليني بِطـــولِ بُعـــدِ المَـــزارِ
فَلَقَـــد سُـــمتني بِوَجهِـــكِ وَالوَصـــــ ـــلِ قُروحـــاً أُعيـــت عَلـــى المِـــسبارِ
ذَقَـــنٌ نـــاقِصٌ وَأَنـــفٌ طَويـــلٌ وَجَبـــينٌ كَـــساجَةِ القُـــسطارِ
طـــالَ لَيلـــي بِهـــا فَبِـــتُّ أُنـــادي يـــا لَثـــاراتِ مُستَـــضاءِ النَّهـــارِ
قامَـــةُ الفُـــصعُلِ الـــضَئيلِ وَكَـــفٌّ خِنـــصَراها كَـــذَينَقا قَـــصّارِ[١٨]

وقد شطَّ عن المعاني المقبولة في الوصف ، وبالغ في التشبيه ، فكان الوجه مزجـرة للسباع ، لما تكون عليه من قبح المنظر ، حتى تخاف السباع منها ، وهذا الوجه حين يطـل فإنه يوخز الجروح ، لما يعكسه من ألم قبح المنظر ، وتنعم في وصف الوجه من كونه غيـر مكتمل والأنف طويل والجبين كأنه لوح الميزان عند الصيرفي ، فقد رسم صـورة مـضحكة لهذا الوجه ، وكأنها صورة (كاريكاتورية) ، وبهذه الأوصاف للمرأة فإن معاشرها يكون ليله طويلاً ومسهدًا ، ويدعو لظهور الصباح للتخلص من هذا المنظر ، لأنه حينذاك يترك المنزل، ويعود لوصف قامتها التي تشبه قامة الرجل اللئيم وسحنته ، أو كأنها عقـرب بجـامع اللـؤم والشر ، أما أصابعها فكأنها خشبة القصار الذي يدق بها الثياب ، فهـي كبيـرة وضـخمة ، وليست أنامل أنثى رقيقة .

وفي مقطوعة أخرى نرى دعبلاً قد قصر وصفه على تبيان ما لوجهها مـن معايـب وإظهار الأوصاف المستقبحة فيه ، فقال :

فَوهاءُ شَوهاءُ يُبــدي الكَيــدَ مَــضحَكُها
قَنواءُ بِالعَرضِ وَالعَينــانِ بِــالطولِ
لَهــا فَــمٌ مُلتَقــى شِــدقَيهِ نُقرَتُهــا كَــأَنَّ مِــشفَرَها قَــد طُــرَّ مِــن فيــلِ
أَسنانُها أُضعِفَت فــي حَلَقِهــا عَــدَداً مُظَهَّــراتٌ جَميعــاً بِالرَواويــلِ[١٩]

ما انفك دعبل أن يرسم صورة مضحكة لهذه المرأة ، إذ جعل فمها واسعًا ، بل يلتقي الشدقين في القفا لطولهما ، وأنعم في المبالغة حين جعل هذا الفم معارًا من شفة بعيــر فــي الغلظة ، والتوسع من الفيل ، ناهيك عن أسنانها التي أصبحت صفين ، لا تشابه الآخرين من الناس في الخلقة ، وأنها تتراكب بعضها فوق بعض .

وهناك نص اختلف في نسبته بين دعبل وبعض الشعراء ، وإن ذكره محقــق ديــوان دعبل ، ولكننا نجد النص لم يخرج عن المعاني التي طرقها الشعراء ، ومــنهم دعبــل فــي هجائهم لأزواجهم ، وإن كانت الأوصاف قد زادت على ما ذكره دعبل حين نعتــت ــ هــذه المرأة ــ بالشذوذ وخلوها من الأنوثة ، فضلاً عن تكرار الصور نفسها التي رسمت للمــرأة القبيحة المنظر ، والخالية من عناصر الأنوثة[٢٠] .

ونجد شاعرًا آخر هو (أبو دلامة زيد بن الجون ت ١٦١ هــ) ، والذي عرف عنه بأنه كان ((فاســد الدين ، رديء المذهب ، مرتكبًا للمحارم ، مضيعًا للفــروض ، مجــاهرًا بذلك))[٢١] ، وروي عنه أنه كان مخادعًا يحاول حصول العطايا والهبات بطرائق مختلفة ، حتى وإن كان بالكذب والخداع ، أو جعل من نفسه أضحوكة للآخرين[٢٢] ، ولا يتورع عــن طرق عدة مــوضوعات من أجل الاستجداء وكسب الأموال ، وإن كان في بعضها ينال مــن أهله ، بل تطور الأمر إلى أمه ، وذكر صاحب الأغاني قصة حــصوله علــى دار وكــسوة ودراهم نتيجة تذلُّله بالسؤال حين نظم قصيدة بيَّن فيها حاله وحال أمه وعياله وما أصابهم من قحط وفاقة ، منعمًا في كشف مواطن الفقر بإيراد بعض الصور المضحكة من واقع حــالهم ، وما بهم من شظف العيش[٢٣] .

والمتتبع للنصوص الشعرية في ديوانه يجد أن جل اهتمامه منــصبٌّ علــى الدعابــة والفكاهة والعبث ، وخداع الخليفة وحثّه على العطاء والآخرين ممن يتوسم بهم العطاء ، ويبدو أن هجاءه لزوجه كان من هذا الباب لا غير ، ونلحظ أنه قد بناها تقليدية ، إذ بدأها بالطلــل ، ثم دخل في الموضوع الرئيس ، قال :

إنَّ الخَلــيطَ أَجَــدَّ البَــينَ فــانتَجعُوا يومَ الوَدَاعِ فما جَــاؤُوا ومَــا رَتَعُــوا
واللهُ يعلَــــمُ أن كــــادَت لِبَيــــنِهِمُ يومَ الفِراق حَــصَاةُ القَلــبِ تَتــصَدِعُ

عَجِبتُ مِـن صِـبيَتي يومـاً وأُمِّهِـمُ ... أمِّ الدُلامَـةِ لمّـا هَاجَهـا الجَـزَعُ
لا بـارِكَ اللهُ فيهـا مِـن مُنَبِّهَـةٍ ... هبَّت تلُـوم عِيَـالي بَعـدَما هَجَعُـوا
ونَحـنُ مُـشتَبِهُو الألـوانِ أوجُهُنَـا ... سُـودٌ قِبَـاحٌ وفـي أسـمائِنا شَـنَعُ
أذابَكَ الجُـوعُ مُـذ صَـارَت عِيَالَتُنَـا ... علـى الخَلِيفَـةِ مِنـهُ الـرِّيُّ والـشَّبَعُ
لا والَّذي يا أمِيـرَ المُـؤمِنينَ قَـضَى ... لَـكَ الخِلافَـةَ فـي أسـبَابِها الرِّفَـعُ
مـا زِلـتُ أُخلِـصُها كَـسبِي فَتَأكُلُـهُ ... دُونـي وَدُونَ عِيـالِي ثـمَّ تَـضطَجِعُ
شَـوهاءُ مَـشنأةٌ فـي بَطنِهـا ثَجَـلٌ ... وفي المَفَاصِـلِ مـن أوصـالها فَـدَعُ
ذكّرتهـا بِكِتـابِ اللهِ حُرمَتنـا ... ولـم تكـن بِكِتـابِ اللهِ تَنتَفِـعُ
فاخرَنطَمَت ثمّ قالَـت وهـي مُغـضَبَةٌ ... أَأَنـتَ تَتلـو كِتـابَ اللهِ يـا لُكَـعُ
اخـرُجْ لِتَبـغِ لنـا مـالاً ومَزرَعَـةً ... كَمَـا لِجِيرانِنـا مَـالٌ ومُـزدَرَعُ
واخـدَعْ خَلِيفَتَنَـا عَنهـا بِمـسأَلَةٍ ... إنّ الخَلِيفَـةَ لِلـسُّؤال يَنخَـدِعُ[٢٤]

تشير صيغة الخطاب إلى أنه يبغي الدعابة والفكاهة واستدرار عطف الخليفة ، وقد بناها تقليدية حين بدأها بالطلل ، ليعبر عن الموضوع الرئيس الذي يريد أن يسوقه للمتلقي ، فقد كان تعجبه من أولاده وأمهم حين أصابهم الجزع فدعا عليهم ، لأنها تثير غضبه حين توقظ عياله بصراخها وتلومهم على ما هم عليه ، وسكوتهم عن أبيهم ، ويعرج على عرض صورة الفقر حين يصور سنحتهم وما هم من قبح كون الفقر يولد القبح ، وحتى في الأسماء ــ وهذا ادعاء لا يقبله العقل ــ وأراد من ذلك أن يبين للخليفة أنه بحاجة إلى عطائه وحضه على البذل ، وينعم في تصوير حال زوجه ، كونها لحوحة ولائمة ولا تقنع وكثيرة الشكوى ، ويوضح أن الجوع قد أصابهم حين أصبح مصدر رزقهم الخليفة ، كناية على قلة العطاء ، ويكرر جشع زوجه على الرغم من توافر المستطاع ، ولكنها لجوجة تريد المزيد ، وينعم في وصف قبحها وسعة بطنها ، للدلالة على عدم قناعتها ، مدعيًا أنه يحاول إصلاحها بذكر كتاب الله ، وما يجب عليه أن يكون المرء مع زوجه ، لكنها تنكر تدينه وتدعوه باللؤم وعدم معرفته لحدود الله ، بما عرف عنه من تحلل ، وأخيرًا يخبر الخليفة أنها طلبت منه الخروج لكسب المال ، وكونها حسودة فإنها تريد أن يكون لها كما للآخرين ممن رزقهم الله ، وتطلب منه خداع الخليفة بالسؤال ، لأن الخليفة ينخدع بالطلب وادعاء الفاقة .

ونراه هنا قد جمع الصفات الخَلْقية والخُلُقية التي ينفر منها المرء في إطار مضحك ، وصف به زوجه من أجل هدف واحد هو التكسب فقط .

ومن الشعراء الآخرين الذين تناولوا بشعرهم أزواجهم لأسباب أخرى تتعلق بشخصية الزوجة أو لدافع النيل منها ، أو لخلاف نشب بينهما ، أو لطبائعها التي جعلتهم ينقمون الحياة

ويبرمون بها ، هو ابن أبي الزوائد ، (من الشعراء المخضرمين في الدولتين الأموية والعباسية)[٢٥] ، قال في زوجه ما هو فاحش ومقذع ويصل إلى السباب البذيء في انحطاطه، وفضلت عدم ذكر أبياته الفاحشة ، وإن ما سرت عليه من منهج في ذكر الأبيات التي لا تخدش الحياء ، فقال :

يا رمل أنت الغول بين رمال لم تظفري بتقًى ولا بجمال
يا رمل لو حدثت أنك سلفعٌ شوهاء كالسعلاة بين سعالي
ما جاء يطلبك الرسول بخطبةٍ مني ولا ضممت عليك حبالي
ولقد نهى عنك النصيح وقال لي لا تقرنن بذيه بعيال[٢٦]

وفي هذه الأبيات نراه لم يخرج عمَّا درج عليه الشعراء في وصف أزواجهم بالقبح ، وزاد في وصفه أنها خالية الوفاض من التقى ، فضلاً عن الجمال ، فهي غول وسعلاة ، ويلوم نفسه على اقترانه بها ، ويندب حظه على عدم سماع النصائح بعدم الاقتران بها ، لما تحمله من صفات سيئة وسلوك منحرف ، ولكننا نجد له قصيدة أخرى يضمن هجاءه فيها فخرًا على زوجه ، بعد أن فخرت عليه، ولكنها أقرب إلى الفخر منها للمديح ، ولذلك لم نذكرها هنا[٢٧].

وهنا يمكن أن نتبين سبب الهجاء الذي وجهه إلى زوجه ، وحمله على النيل منها ، ولصق أوصاف القبح بها ، وهو من الأسباب التي يمكن أن نسوقها إلى أسباب الهجاء الأخرى ، لأن زوجه افتخرت عليه ، مما يدل على وجود تمايز طبقي بينهم ، وهذه الفجوة بين الزوجين واختلاف مكانتهما الاجتماعية تستدعي الشاعر أن يستحضر إمكانيته ويكد ذهنه كي ينال ممن فاخره أو تعالى عليه .

ولمحمد بن كناسة (من شعراء الدولة العباسية)[٢٨] شعر يعرض بامرأته ويومئ إليها من دون الإسفاف أو النيل من الأعراض ، فقد روى صاحب الأغاني أنه ((نظر إلى مصلوب على جذع ، وكانت عنده امرأة يبغضها ، وقد ثقل عليه مكانها ، فقال يعنيها :

أَيا جِذعَ مَصلوبٍ أَتَى دُونَ صَلبِهِ ثَلاثُونَ حَولاً كامِلاً هَل تُبادِلُ
فَما أَنتَ بِالحِملِ الَّذي قَد حَمَلتَهُ بِأَضجَرَ مِنِّي بِالَّذي أَنا حامِلُ))[٢٩]

جاء هنا بتعريض جميل حول مدى تحمله لزوجه مدة ثلاثين عامًا ، وهو صابر على ما يلاقيه ، ومخاطبته لمن هو مصلوب ومقارنته معه تدل على عمق معاناته وشدة تحمله .

ومما يروي عن أحدهم أنه تزوج بامرأة في البصرة فضجر منها أول ليلة ، فما كان منه إلا أن يبث معاناته وشكواه من خلال إطار الهجاء ، ويبدو أن صرخاته وبرمه بمن كان معه في حجرة واحدة ليس لها صدى ، لأنه مجبر على البقاء معها ، ولاسيما في أول أيام الزواج ، على الرغم من تزيين المرأة وتعطرها له ، لكنها لم تلق قبولاً في نفسه ، والسبب

أظن أنه لم يتآلف معها ونفسه لم تتوائم مع نفسها ، أو أنه كان يعاني من تقلب في المزاج وبشخصية مهزوزة بما ذكره من صفات إيجابية لزوجه ، قد يكون الأمر هذا أو ذاك ، فقال :

أقول وقد شدّوا عليها حجابها ... ألا حبّذا الأرواح والبلد القفر
ألا حبّذا سيفي ورحلي ونمرقي ... ولا حبّذا منها الوشاحان والشّذر
أتوني بها قبل المحاق بليلةٍ ... فكان محاقاً كلّه ذلك الشَّهر
وما غرّني إلاّ خضابٌ بكفّها ... وكحلٌ بعينيها وأثوابها الصّفر
تسائلني عن نفسها هل أحبّها ... فقلت ألا لا والذي أمره الأمر
تفوح رياح المسك والعطر عندها ... وأشهد عند الله ما ينفع العطر[٣٠]

الخاتمة

من كل ما تقدم نرى أن الشعراء قد اختلفوا في أسباب هجائهم ، كما اختلفوا في نوع الخطاب الموجه ، فمنهم من انحط بخطابه ومنهم من علا ، فالإسفاف والنيل من الأعراض والهجاء المقذع عدَّه النقاد من السباب المحض ، ووازنوا بين نوع الخطاب في الهجاء ، قال ابن رشيق نقلاً عن صاحب الوساطة : ((فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن))[٣١] . لذلك يعد الهجاء من هذا الباب الذي لا يأخذ به النقاد ، وإن كانت اللغة المستعملة هي الأقرب إلى الشعبية في سهولتها ، لأن الهجاء من الأغراض الشعبية التي يحاول من خلالها الشاعر أن يستعمل اللغة السهلة والمفردة المعروفة ، كي يوصل خطابه إلى متلقيه بسهولة ، من دون الخوض في مفردات أخرى ، يصعب على المتلقي أن يفهم دلالتها ومقاصدها ، ولذلك نرى الشعراء الذين تناولتهم في بحثي ينحون هذا المنحى ، وإن كانت صفة عامة اتصف بها هذا الفن وهذا العصر ، إذ إن البيئة والزمن تحدد نوع الخطاب وطريقة تناوله ، واختلفت درجات الشعراء في الإجادة ، وإن كان هدفهم هو النيل من أزواجهم ، واختلفت طرائقهم في التعبير ، فنرى دعبلاً قد أنعم في التصريح والتهافت والفحش ، ونرى أبا دلامة قد قرب منه ، ولكن لم ينعم كما أنعم ، أما ابن أبي الزوائد فقد غاص في الفحش وأكثر من النيل من زوجه بألفاظ لا يمكن أن نعدها من الفن الشعري ، أما بقية الشعراء فكان التعريض أبلغ عندهم من التصريح ، وأجادوا في بث لواعجهم وشكواهم عما يعانوه من أزواجهم .

وأخيرًا وأنا استعرض ما جاء على لسان بعض الشعراء من هجاء خصُّوا به أزواجهم ، فقد كانت هناك عدة أسباب لهذا الهجاء كما مرَّ بنا ، فمنهم من كان ديدينه الهجاء وعدم رضاه على الآخرين ، بسبب أو من دون سبب ، ومنهم من جعله طريقة للتهزل والإضحاك للكسب من دون أن يكون هناك قصد فيه ، ومنهم من كانت معاناته (الأسرية) هي سببًا دفعه إلى تناول زوجه ، وآخرون كانت الظروف الاجتماعية والعلاقات هي السبب في توجيه سهام هجائهم إلى أزواجهم .

هوامش البحث وقائمة المصادر والمراجع

(١) ينظر : الحيوان ــ أبو عثمان الجاحظ ــ تح : عبد السلام هارون ــ ط ٢ ــ مصطفى البابي الحلبي ــ القاهرة ــ ١٩٦٦ م ــ ١ / ٧٤ ، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ــ لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ــ حققه وفصله وعلق على حواشيه : محمد محيي الدين عبد الحميد ــ دار الجيل للنشر والتوزيع الطباعة ــ بيروت ــ ط ٤ / ١٩٧٢ م ، ١ / ١٨٩ ، وطبقات فحول الشعراء ــ محمد بن سلاَّم الجمحي ــ تعليق وشرح : محمود محمد شاكر ــ ذخائر العرب ــ القاهرة ــ دار المعارف ــ ١٩٥٢ م ، ٢٨ .

(٢) ينظر : تاريخ الأدب العربي ــ كارل بروكلمان ــ ترجمة : الدكتور عبد الحليم النجار ــ دار المعارف ــ مصر ــ (د . ت) ١ / ٤٦ .

(٣) ينظر : لسان العرب ــ جمال الدين بن مكرم بن منظرو ــ دار صادر ــ بيروت ــ ١٩٥٦ ، مادة (هجا) .

(٤) ينظر على سبيل المثال : العمدة ، وديوان الحماسة ، وديوان المعاني ، وكتاب الصناعتين ، والوساطة ... الخ .

(٥) ينظر : العمدة ٢ / ١٧١ .

(٦) المصدر نفسه .

(٧) اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري ــ الدكتور محمد مصطفى هدارة ــ دار العلوم العربية ــ بيروت ــ ١٩٨٨ م ، ٤٤٧ .

(٨) ينظر : القاضي الفاضل شاعرًا ــ كمال عبد الفتاح حسن السامرائي ــ رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة ــ كلية الآداب ــ جامعة بغداد ــ ١٩٩٨ م ، ٩٨ .

(٩) أبحاث في الشعر العربي ــ الدكتور يونس احمد السامرائي ــ ط : سلسلة بيت الحكمة ــ بغداد ــ ١٩٨٩ ، ٩٢ .

ويذكر أن ابن رشيق قال : ((وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب)) . العمدة ٢ / ١٧٢ .

(١٠) ينظر : الأغاني ــ أبو الفرج الأصفهاني ــ شرحه وكتب هوامشه : الدكتور يوسف علي طويل ــ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ــ ط ١ / ١٩٨٦ ، ٢٠ / ١٣١ ، وقال عنه : ((هجَّاء خبيث اللسان ، لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة ، أحسن إليه أو لم يحسن ، ولا أفلت منه كبير أحد)) ، وما رواه أيضًا أن دعبلاً كان ينظم الشعر في الهجاء ولا يضع اسم أحد عليه ، وإنما يجعله جاهزًا حين تكون الحاجة إليه ، فيضع اسم من يريد أن يهجيه . ينظر : الأغاني ٢٠ / ١٤٢ .

(١١) شعر دعبل بن علي الخزاعي ــ صنفه : الدكتور عبد الكريم الأشتر ــ مطبوعات المجمع العلمي العربي ــ دمشق ــ ١٩٤٦ م ، تاريخ المقدمة ١١٦ . (الخزز) : ولد الأرنب ، و(الزبيل) : القفة أو الجراب ، و(حمى نافض) : حمى الرعدة ، و(الجؤجؤ) : الصدر ، و(الساجور) : خشبة تعلق في عنق الكلب ، ويقال للمرأة السيئة : غِل قل .

(١٢) ينظر : شعر دعبل ٥١ ــ ٥٤ ــ ٥٥ ــ ٦٨ ــ ٨٥ ــ ٨٦ ــ ٨٩ ــ ٩١ ــ ٩٣ ــ ٩٤ ــ ٩٥ ــ ٩٦ ــ ٩٧ ــ ٩٨ ــ ٩٩ ــ ١٠١ ــ ١٠٨ ــ ١٠٩ ــ ١١٠ ــ ١١١ ــ ١١٢ ــ ١١٣ ــ ١١٤ ــ ١١٨ ــ ١٢١ ــ ١٣٤ ــ ١٣٥ ــ ١٣٦ ــ ١٣٨ ــ ١٤٨ ــ ١٥١ ــ ١٥٣ ــ ١٥٥ ــ ١٦٢ ــ ١٦٤ ــ ١٧٢ ــ ١٨٧ ــ ١٩٣ ــ ١٩٧ ــ ١٩٨ ــ ١٩٩ ــ ٢٠٥ .

(١٣) قال ابن المعتز : ((إن دعبلاً قد نحت خشبته ، وجعلها على عنقه يدور بها يطلب من يصلبه بها منذ ثلاثين سنة ، وهو لا يبالي ما قال هؤلاء وما فعل له)) طبقات الشعراء المحدثين ــ ابن المعتز ــ تحقيق : عبد الستار فراج ــ دار المعارف ــ مصر ــ ط ٤ / ١٩٨١ م ، ٢٦٥ ، وجاء في الأغاني ٢٠ / ١٣٣ أن دعبلاً قال : ((أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة ، لست أجد أحدًا يصلبني عليها)) .

(١٤) سورة البقرة من الآية : ٢٣١ .

(١٥) ينظر : الأغاني ٢٠ / ١٦٦ .

(١٦) شعر دعبل ١١٣ ، (الصفحة) : صفحة الخد ، و(سطوة الدهر) : قهره وتسلطه ، و(الضربان) : موجان العروق بالألم ، و(خاليًا) ، يريد إذا أخلوت بها ، و(البرسام) : ذات الرئة ، و(سُخنة العين) ، نقيض قرتها ، و(القلح) : صفرة الأسنان ، و(جبلا طيئ) : أجأ وسلمى .

(١٧) ورد هذا المثل في : المستقصى في أمثال العرب ــ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط ٢ / ١٩٨٧ م ، ١ / ٢٧٧ ، وجمهرة الأمثال ــ أبو هلال العسكري ــ دار الفكر ــ بيروت ــ ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م ، ٢ / ١١٥

(١٨) المصدر نفسه ١١٧ ، (المجدار) : ما ينصب في الزرع مزجرة للسباع ، و(سبر الجرح) : قاسه ، و(المسبار) : ما يسبر به ، و(القسطار) : الصيرفي او التاجر ، و(الساجة) : اللوح الذي تقوم عليه كفتا ميزانه ، و(الفصعل والقصعل) : الرجل اللئيم الذي فيه شر ، وهو من أسماء العقرب ، و(القصار) : محور الثياب (الصباع) ، و(الكذنيق) : القصرة التي يدق بها .

(١٩) المصدر نفسه ١٧٤ ، (الفوه) : سعة الفم وعظمته ، أو خروج الأسنان من الشفتين وطولها ، و(شوهاء) : قبيحة ، و(المضحك) : الفم ، و(الفنا) : ارتفاع الأنف واحديدابه ، و(النقرة) : نقرة القفا ، و(المشفر) : شفة البعير ، و(طرَّ) قطع ، و(مظهرات) : جعل بعضها فوق بعض ، و(الظهارة والرواويل) : أسنان زوائد خلف الأسنان .

(٢٠) ينظر : المصدر نفسه ٣٤١ ، وينسب في الأغاني إلى إسماعيل بن عامر ١٠ / ١٣١ ، وفي شرح ديوان الحماسة ، لأبي علي أحمد بن الحسن المرزوقي ــ تحقيق : أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ــ مطبعة لجنة التأليف والنشر ــ ط ١ / ١٩٥٣ م منسوبة إلى أبي الغطمش ، ٤/ ١٨٨١ رق ٨٧٩ .

(٢١) الأغاني ١٠/ ٢٨١ .

(٢٢) ينظر قصة كذبه على الخليفة المهدي وادعائه بموت زوجه ومن ثم كذب زوجه على الخيزران بموت زوجها ، فنالوا عطاءهما في : الأغاني ١٠ / ٣٠٤ ، وقصة هجائه لنفسه في : طبقات الشعراء ٥٧ .

(٢٣) تنظر القصيدة في : ديوان أبي دلامة الأسدي ــ إعداد الدكتور رشدي علي حسن ــ مؤسسة الرسالة ، ودار عمار ــ الأردن ــ ط ١ / ١٩٨٥ م ، ٣٥ ، والقصة في : الأغاني ١ / ٣٠٨ .

(٢٤) ديوانه ٦٢ ، (الخليط) : المشارك أو الزوج ، و(الثجل) : عظم البطن واسرخاؤه ، و(الفدع) : الاعوجاج ، و(المنشأ) : القبيح ، و(اخرنطمت) : رفعت أنفها واستكبرت ، و(لكع) : لئيم .

(٢٥) ينظر : الأغاني ١٤ / ١٢٠ .

(٢٦) المصدر نفسه ١٤ / ١٢٣ ، (السلفع) : المرأة البذيئة والسيئة الخلق ، و(الشوهاء) : القبيحة ، و(السعلاة) : ضرب من الغيلان الخبيثة .

(٢٧) ينظر : المصدر نفسه ١٠/ ١٢٣ ــ ١٢٤ .

(٢٨) ينظر : المصدر نفسه ١٣ / ٣٦٣ .

(٢٩) ينظر : المصدر نفسه ١٣ / ٣٦٥ .

(٣٠) عيون الأخبار ــ لابن قتيبة ــ مصور عن طبعة دار الكتب ــ ١٩٦٣ م ، ٤ / ٣٢ .

(٣١) العمدة ٢ / ١٧١ ، وتنظر صفحة ١٧٤ .